

وهَمَّتْ أن توقظهما، لولا أن نسيماً كانت تسرع إلى الصبيتين فتحملهما إلى مضجعهما، ثم تعود إلى مولاتها فتسليها بالقصص والحديث، وما تزال بها حتى تسلمها إلى نوم مضطرب ثقيل، وقد اشتد هذا الأمر مع الأيام، حتى اضطرت الخادم إلى أن تنام في غرفة سيدتها، تُلقي لنفسها وسادة على الأرض، وما تزال بسيدتها في حديث وقصص، حتى إذا أحست منها استسلاماً للراحة أو إذعائاً لشيء يشبه النوم استلقت هي على وسادتها فنامت إحدى عينيها وظلت الأخرى مستيقظة لحراسة سيدتها من هذا الطائف المزيج الذي كان يُلْم بها كلما اطمأنت أو كادت تطمئن إلى النعاس.

وقد عاشت نفيسة ما شاء الله لها أن تعيش، وعمّرت ما أذن الله لها أن تعمر دون أن تطمئن إلى النوم ليلة كاملة، إنما كانت تهبُّ من نومها أثناء الليل فزعة جزعة؛ لأنها رأت أمها أو أباه، وسمعتهم يُلقيان إليها هذا الأمر دائماً: قولي لهم يدفنها معي فأنا إليها مشوق، وقد وعدتها بذلك قبل أن أموت. أو قولي لهم يدفنونني معه فأنا إليه مشوقة، وقد وعدني بذلك قبل أن يموت. وكثيراً ما رثيت شفتاها أثناء النهار تتحركان دون أن يصدر عنهما صوت؛ فلم يشك من كان حولها في أنها تردد هذا الأمر الذي صدر إليها من أحد أبويها أثناء الليل.

وقد قصّت نسيم بعض هذا على سيدها خالد، فاستمع له ثم انصرف عن مولاته وهو يستعيز بالله من الشيطان الرجيم، ويقول: ﴿أَصْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِنَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾. وقصّ خالد ما سمع من مولاته على أبيه، فقال: يرحم الله عبد الرحمن! ويرحم الله امرأته! ويلطف الله بنفيسة! هون عليك يا بني وارقق بها؛ فإنما طائف الليل هذا الذي يزورها كجنية البيت التي تراءت لها ذات مساء، وأنبأتها بأنك تريد أن تُدخل عليها ضرة في بيتها، أتذكر جنية البيت؟! ثم سكت علي لحظة، ثم استأنف حديثه قائلاً: ومع ذلك فيحسن أن نُعيد هذا الحديث على الشيخ، فلعله أن يرى لنا في الأمر رأياً. وأعاد علي بمحضر ابنه على الشيخ حديث نفيسة؛ فابتسم الشيخ ابتسامة حزينة وقال: يلطف الله بها، إنما هو طائف من الشيطان قد أولع بها فصرفها عن الحياة وصرف عنها الحياة؛ ومع ذلك فارقوا بها وجنبوها العزلة ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً. ونظر الشيخ إلى علي فإذا دمعان تترقرقان في عينيه ثم لا تلبثان أن تنحدرا على خديه لتضيعا في لحيته الكتّة، وإذا هو يقول: اللهم ارحم أم خالد، واغفر لي وللشيخ الكبير ولعبد الرحمن، فقد أنبأتني أنني حين أزوج هذين الشابين لا أزيد على أن أغرس في بيتي شجرة البؤس، لقد والله غرستها، فثبتت أصولها في الأرض، وارتفعت أغصانها في السماء، وأخذت تُؤتي ثمرها